روزيتا .. نهارك سعيد !

واحد

مـن دراويش النيل «أنا» وكنت قد ألقيت نفسـي في مياهه، فقادني إلى مصبه، عند زهرته الجميلة «روزيتا» أو «رشيت» .. وأخيرا «رشيد» .

والثابت تاريخيا وحضاريا أن المنبع ممثلا في «النيل»، قد صدر الحياة إلى المصب، في حين صدر المصب ممثلا في «البحر المتوسط» الحضارة إلى المنبـع، فالأول صدر الخام، والثاني أعاده إليه مصنوعا وغزاة، وكانت رشيد في الحالتين محور الحياة والصراع.

في الطريق من القاهرة، وفي اتجاه الشمال بنحو ٢٥٠ كم، نصل إلى رشـيد، ويتبين لنا عجب هذا النهر، الذي خرق القاعدة الجيولوجية مرتين، ولصالح مصر:

□ تتجلى الأولى في كونه أحدث أنهار القارة الإفريقية.

□ والثانيـة بوصفه مخالفا لكل أنهـار الدنيا، إنه يتجه طوليا من الجنـوب إلى الشـمال، ولم تفت هـذه المخالفة الطبيعيـة هيرودوت.. فسجل «أنه يجرى عكس كل الأنهار الأخـرى» .. ووصفه عمنا جمال حمدان بأنه: «العاصي الأعظم» . !

(١)

والزهرة الجميلة «رشـيد» .. ذلك المثلث الذي يحده شـرقا «النيل»

فى فرعه المسمى باسمها، وشمالا البحر المتوسط، حيث يلتقى النهر مع البحر فى عناق أسطورى، أسفر: حياة وحضارة وغزاة ومصاهرات ومعاهدات، وقلاعا، أما الضلع الثالث، فهو قاعدة المثلث التى يبلغ طولها ٢٢ كم، ويضم مليون نخلة.

يصف أحد علماء الحملة الفرنسية «جولوا» هذا الموقع بقوله «رشيد» قابعة على شط النيل، وعلى بعد ثلاثة فراسخ من البحر المتوسط، وتستخدم كمستودع للبضائع القادمة من القاهرة، والمناطق العليا من مصر، كى تنقل إلى أوربا عن طريق الاسكندرية، وبنفس الطريقة تستقبل البضائع القادمة من أوربا عن طريق الأسكندرية، وتنتقل هذه البضائع إلى القاهرة عبر النيل، ومن هنا تتوزع إلى جميع أنحاء مصر».

يضيف جولوا، الذى وصل رشيد عن طريق البحر المتوسط على متن السفن الفرنسية الغازية، كما جاء فى موسوعة وصف مصر، والتى نقلها إلى العربية أحد كهنة حب مصر زهير الشايب.. «على بعد ثلاثة أرباع الفرسخ من مصب النيل، كان لون المياه أخضر فاتحا، وقد تبين الخط الفاصل بين اللون الأخضر لمياه النيل، واللون الأزرق لمياه البحر المتوسط، وما أن اجتزنا البوغاز، حتى تغير اللون الأخضر، إلى اللون الأصفر الناتج بلا ريب من لون الرمال التى ينقلها النهر إلى مصبه، والناتج كذلك من لون الطمى العالق بمياه النهر».

وأسبح مع «جولوا»

والسباحة هذه المرة جنوبا

فقد تجاوزنا البوغاز.. ودخلنا إلى النهر الذى احتوانا، ونظرنا يمينا: «كانت ثمة غابات من النخيل ذات خضرة آخاذة، وحيث إن شطآن النهر قليلة الارتفاع، فقد كان مدى البصر يمتد إلى بعيد، كنا نلمح قرى، ومآذن رائعة وأضرحة تتجمع حولها مجموعات من النخيل، أما من جهة الدلتا، فكانت العيون تشعر بارتياح تجاه حقول يغطيها الأرز، فتشكل واحدا من أبهج المناظر، ومن غير بعيد من النهر، ينمو بوفرة المحاصيل والشجيرات، ويلاحظ من بينها غابات من أشجار البرتقال والليمون التى تنشر شذى طيبا».

ويضيف، جولو وأنا: «وقد يتهيأ المرء وهو يعيش وسط أشجار وشجيرات بساتين رشيد، أن يترك لخياله العنان، ولا يستطيع إلا الاستسلام للبهجة التى تصنعها الروائح التى تنتشر فى كل مكان.. وللمشهد الآخاذ لزهرة الرمان ذات اللون الأرجوانى، ولزهرة الريحان ذات اللون الأبيض، ومع ذلك فهل يمكن لهذه الجداول التى تنشر الماء والنماء فى كل مكان أن تكمل صورة الجمال، يضاف، كل بساتين رشيد تقع على حافة الصحراء، وتشكل سياجا يحدد مساحتها، وكذلك فإن الأشجار التى تزرع فيها تصنع ما يشبه حواجز تصد عن المدينة رمال الصحراء».

(٢)

ورشيد:

مدينة قديمة يرجع تاريخها إلى ما قبل الأسرة الأولى فى التاريخ الفرعونى، لأن الملك مينا كان قد زحف إليها فى ثورته الأولى سعيا

وراء تحقيق الوحدة بين الوجهين القبلى والبحرى، فاصطدم بأهل هذه المنطقة الذين كانوا يسمون «رخيتو» أى «عامة الناس» .. وهذه الكلمة قريبة من الأصل القبطى لرشيد وهى «رشيت» التى صارت فيما بعد «رشيد» .. أما «روزيتا» أى الوردة الصغيرة «فهى ليست إلا تعديلا للتسمية «رشيد» .

وفى الأسرة التاسعة عشرة، أقام الملك «منفتاح» استحكاماته على الضفة الغربية لفرع النيل برشيد، لصد هجمات الإغريق والصقليين، وقد انتصر المصريون لأول مرة فى معركة حربية مع أوربا، والتى جرت وقائعها على أرض رشيد، كما أقام الملك «بسماتيك الأول» عام ٦٦٣ ق . م معسكرا على ساحل رشيد، وأوقف ثلاثين سفينة لحمايتها، كما أن فرع النيل الحالى «البولبتينى» نسبة إلى «بولبتين» التى قامت رشيد على أنقاضها فى العصر اليونانى، حيث كان يصنع بها العجلات الحربية اليونانية .

ودخلت رشيد فى الإسلام على يد عمرو بن العاص بعد فتح الأسكندرية عام ٢٠ هجرية، وكان حاكم رشيد القبطى «قزماس» قد عقد صلحا مع ابن العاص وأدى الجزية، وظلت الكنائس على حالها لمن بقى على دينه من أهلها .

وفى القرن الثالث الهجرى، وعلى حد قول اليعقوبى فى مؤلفه «البلدان» كانت رشيد مدينة عامرة آهله بها ميناء بحرى يجرى فيه مياه النيل إلى البحر المالح، وتدخله المراكب حتى تصير فى النيل» .

يضيف «أما فى القرن الرابع الهجرى، فقد تعرضت رشيد للمعارك الحربية التى جرت بين العباسيين والمغاربة، ففى سنة ٣٠٦ هـ. أرسل المقتدر بالله العباسى أسطولا من بغداد التقى عند رشيد بأسطول المهدى صاحب المغرب، فانتصر العباسيون حيث احترقت مراكب المهدى وفنى كثير من رجاله ووقع الباقون فى الأسر».

ويقول ابن دقاق فى كتابه الانتصار بواسطة عقد الأمصار «ثغر رشيد المحروس، وبلدته عند مجمع البحرين وتجاهه جزيرة تعرف بالخضراء ويوجد بهذا المكان فرس النيل، وبها جامع وحمام وأمير مركز وبها كوم الأفراح، وبأعلى الكوم منار يرى منه مراكب الفرنج القادمة، وقد عمَّره السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى، وبأسفله برج عمَّره الأمير صلاح الدين بن عرام على شاطىء النيل، وبالبرج المذكور كُتَّاب سبيل يقرءون به، وهذه البلدة كثيرة بشجر الرمان والنخيل، وأهلها قليلون، وعامتهم صيادون فى السمك والطير، وإن كان أهل هذه المدينة كلهم مرابطون».

وقد بلغت رشيد أوج حضارتها فى القرن العاشر الهجرى، ويذكر ابن زبيل فى تحفة الملوك والغرائب: «من ثغور مصر كوم الأفراح، فيها مقابر كثيرة من الصحابة، وهى مدينة حصينة، بينها وبين أبى قير بالأسكندرية نحو ثمانية فراسخ فى البر، وفى رشيد يعمل السكر ويُجْلب منها إلى جميع الممالك، وكذلك الأرز والسمك، وبها أصناف اللحوم والفواكه».

لذلك .. فقد حظيت هذه المدينة بعد أن أصبحت أقرب الثغور المصرية من استنبول بعد فتح مصر «٩٢٤ هـ - ١٥٧١ م» بالمنشآت العثمانية، وكان أكثرها مساجد ووكالات ومقاهى ومتاجر، وكان يوجد بها مؤسسات أوربية وقناصل يمثلونها، وأونها البندقية، إلا إن القرن الثانى عشر قد شهد انحدار المدينة، شأنها فى ذلك، شأن المدن المصرية على أيدى المماليك المتناحرين .

(٣)

ومع مطلع الثانى من شهر يوليو ١٧٩٨، كتب فصل جديد من التاريخ المصرى، حين حط نابليون بونابرت بقواته فى الأسكندرية، حالما بأن تكون مصر «لؤلؤة» الإمبراطورية الفرنسية، على غرار الهند «لؤلؤة» الإمبراطورية البريطانية، وعلى حد تعبير بونابرت فى مذكراته «تأمل ما تصبح عليه هذه البلاد الجميلة بعد خمسين سنة من الرخاء والحكم الصالح. إن المخيلة لترتاح إلى صورة جذابة: ألف هويس تتحكم فى طول البلاد وعرضها، لتوزع مياه الفيضان، وثمانية أو عشرة ملايين متر مكعب من مياه النيل تضيع كل عام فى البحر، يمكن أن توزع على كل منخفضات الصحراء». !

وبعد مقاومة باسلة فى الأسكندرية، تم استقرار الحال لبونابرت، فبادر بالتوغل فى البلاد لإتمام فتحها، فأرسل قوة إلى رشيد، لأهميتها، ولتأمين احتلاله للأسكندرية لأن تموينها من الطعام يأتى من رشيد، غير أن رشيد لم تقع فريسة سهلة فى أيدى الفرنسيين،

لأن المقاومة الشعبية كانت مستقرة – كما يقول محمد زيتون فى كتابه إقليم البحيرة – فأدرك الفرنسيون ذلك الاتصال الوثيق بين مقاتلى الأسكندرية، ومناضلى رشيد، فصبوا جام غضبهم على السيد محمد كريم بطل المقاومة الشعبية السكندرى، إذ نقلوه من الأسكندرية إلى رشيد، وبعد مهزلة أسموها محاكمة، حكموا عليه بالإعدام .

(٤)

وفى ٢ مارس ١٧٩٩ ، تمت المصاهرة الفرنسية المصرية، بعقد قران الجنرال جاك مينو، القائد الثالث للحملة الفرنسية، والذى أشهر إسلامه، وأطلق على نفسه اسم «عبد الله» على جميلة جميلات رشيد الآنسة زبيدة بنت محمد البواب، من كبار تجار رشيد.

يقول الجبرتى «إن قائم المقام الذى يسمى عبد الله جاك مينو، وكان حاكما على رشيد، وأعلن إسلامه وتسمى عبد الله، وتزوج بامرأة مسلمة غصبا عن أهلها، ففر والد زبيدة من المدينة يوم خطبتها خوفا من عار هذه الزيجة التى لطخت اسمه» !

ولم يثبت أن سلمت زبيدة قلبها إلى مينو الفرنساوى، بالرغم من أنها أنجبت منه ولدا سمى «سليمان مراد» .. وقد كتب مينو – الذى انتقل إلى القاهرة فى يونيو ١٨٠٠ م خطابا إلى المشايخ والعلماء يوم أن أنجب ولده يقول فيه «يا حضرة المشايخ والعلماء، إننا نشكر فضلكم على ما أظهرتم لنا من تهنئة بولادة ولدى السيد سليمان مراد جاك مينو، فنطلب من الله سبحانه وتعالى، ونسأله بجاه رسوله سيد المؤمنين

أن يجود بـه على زماننا مديرا، وأن يكون للعدل محبا، وللاستقامة والحق مكرما» !

يتبادر تساؤل: هل كانت زبيدة بهذا القدر من الجمال المصرى الذى بهر مينو، أو أنه كان زواجا سياسيا قصد به التودد إلى المصريين؟

والتساؤل التالى : كيف كانت زبيدة؟

زبيدة بنت السيد محمد البواب، كان وجهها إشراقة الصبح أو صفحة البدر به، لها عينا حور امتزجت بها صولة سحر، فكانتا شباك الفتنة لصيد القلوب، وأنف أحسن الله تقويمه، فزاد وجهها جمالا، وثغر درى ياقوتى تهيم به الشفاه وتحوم حوله القلوب ظمأ كما تحوم طيور الصحراء حول معين الماء العذب.

كانت زبيدة – و الوصف لعاشق رشيد فرج العزازى نقلا عن الشاعر على الجارم – فى الثامنة عشرة من عمرها، تفتح فيها الشباب كما تتفتح زهرات الربيع، فارعة القد، ملفوفة القوام، جرى حديث جمالها الفاتن من فم إلى فم، وانتقل من دار إلى دار، حتى أصبحت مضرب المثل بين فتيات المدينة، ومقياس الجمال كلما ذكر الحديث عنه، وتهافت أبناء التجار والأعيان و الحكام على خطبتها و التقرب من قدس حسنها، ولكن كانت ترد كل توسل، بالرفض، ولم تكن أمها تستطيع أن تفعل شيئا أمام هذه الحسناء الجامحة، لم يكن أبوها، وهى وحيدته ليرد لها كلمة .!

كانت زبيدة عند أبيها الفتاة المدللة، وقد ملأتها ثقتها بجمالها غرورا، وزادتها ثروة أبيها ميلا للتأنق و الرفاهية و إنفاق المال الكثير

علـى الحلى و الجواهر والملابـس فكانت فى جمالها و أزيائها ودلالها أسطورة الجمال و أبهى خيال، جميلة الجميلات زبيدة البواب.!

وذات يوم :

ظهـرت العرافة «رابحة» التى مرت علـى منزل البواب، فوجدت زبيدة تجلس بجوار أمها «نفيسـة» .. فجذبتها من يدها، ونظرت فى كفها، ثم شـهقت فى دهشـة حائرة .. وصاحت : «سبحانك يا ربى، لا راد لمشـيئتك، ولا معقب لحكمك، بيدك الملك، وأنت على كل شـىء قدير» !.. واسـتطردت: «انظـرى يا زبيـدة إنه خط الملـك فى يدك.. ستكونين ملكة مصر، فتحيتى وخضوعى لمولاتى زبيدة ملكة مصر» .!

وانفلتـت العرافة «رابحة» .. ولم يعثر لها بعـد تلك النبوءة على أثر!.. وسلبت هذه النبوءة من زبيدة فكرها، وسكنت الحيرة عاطفتها بين ميل قلبها لحبيبها «محمود العسـال» ابـن خالتها وبين نبوءتها التى أشعلت بريق الحلم البعيد الذى سيطر على خيالها .!

(٥)

وكيف تم الزواج ؟

تسـاؤل منطقى يطرح نفسـه، ربما تتكشـف الحقائـق حول هذه المصاهرة السياسية الفرنسية المصرية، هل كان طموح زبيدة، وجمالها، وسـحرها وراء تحقيق نبوءة رابحة العرافة، أو أن رغبة مينو فى ضبط الأمن مع أهل رشـيد يأتى من باب المصاهرة، وهل لو كانت زبيدة فتاة مصرية عادية، وكان جمالها طبيعيا كشـأن بنـات نيل مصر، هل كان

مينو سيقترن بها، أو أن «القدر و المكتوب على الجبين» هو الذى أتم الزواج ؟

فى صباح يوم الجمعة عام ١٧٩٨ هبط الفرنسيون رشيد، وهرب من مواجهتهم حاكم رشيد عثمان خجا، وجنوده من الانكشارية، ودانت السيطرة للجنرال «دوجا».. وبعد ثلاثة أيام وصل الجنرال جاك فرانسواه مينو إلى رشيد بعد أن عينه نابليون بونابرت حاكما عليها .

واشتعلت المقاومة الشعبية، وضمت رجال دين وبسطاء، لكن المقام استقر للفرنسيين

وذات يوم ومينو يجلس فى صدر إيوان بيته فى رشيد «يتملل ضجرا من المقاومة الشعبية، أشار عليه بعض معاونيه من ضرورة تغيير سياسته تجاه أهل رشيد، بالتقرب منهم، عن طريق المصاهرة !

وبعد مداولات اختار له أحد العالمين ببواطن الأمور فى رشيد، إما واحدة من بنات الشيخ الجارم، و إما بنت البواب، وعندما وصل الخبر إلى الشيخ الجارم، قام على الفور بعقد قران ابنتيه «رقية وآمنه» على طالبين كان يدرسان على يديه.!

ولم يبق غير بنت البواب

وأرسل مينو فى طلب محمد البواب، وداهمه بطلب يد ابنته الوحيدة «زبيدة».. وأسقط فى يد الرجل، وهرب من رشيد قبل إتمام الزواج، فى الوقت الذى أشهر فيه مينو إسلامه، وسمى «عبد الله» .

وكان شاهدا العروس، شقيقيها من الأم «على الحمامى السيد أحمد»

و «إبراهيم الحمامى السيد أحمد» .. وبحضور مولانا أحمد الخضرى المفتى الشافعى، والشيخ صديق النايب، والشيخ محمد غزال النايب، وأحمد البدوى نقيب الأشراف .

وقد صدر التوافق والتراخى بين الحاج حسين الميقاتى الوكيل الشرعى للعروس وبشهادة شقيقيها، للزواج من عبد الله باشا مينو سارى عسكر القطر المصرى، بموجب كتاب الزوجية المسجل بمحكمة الثغر بالشروط التالية :

١ – أن تكون زبيدة الزوجة قد أقامت وأذنت زوجها وكيلا عنها فى ساير ما تملكه يدها الآن .

٢ – أقر عبد الله باشا مينو الزوج المذكور أن كامل ما هو تحت يدها من متاع ومصاغ ملك لها بمفردها .

٣ – عبد الله باشا مينو الزوج المذكور أعطى لوكيله الحاج أحمد شهاب «مائة محبوب» كل واحد منها بمائة وثمانين نصف فضة من نظير زوجته المذكورة، وأن الحاج أحمد شهاب سلم جميع ذلك ليد وكيل الزوجة الحاج حسين الميقاتى، يسلمها ذلك عددا بالمجلس وذلك على حسب عادة القضاة المسلمين .

٤ – أن الزوج المذكور شرط على نفسه أنه إذا حصل بينه وبين زوجته فراق، يدفع لها ألفا ريال، اثنان معاملة نظير فراقه لها، وكل مالها تحت يدها وقت ذلك يكون جميعه ملكا لها حسب عادة دفع مؤخر الصداق للمسلمين.

٥ – أن زبيـدة الزوجة المذكـورة إن كانت تطلب طلاقها من زوجها بحسب شرع المسلمين لم يكن لها من الألفى الريال المذكورة، ولا نصف فضة، ما عدا ما تحت يدها من مصاغ.

٦ – زبيدة لم تزل وارثة فى كل ما كان شرعا .

٧ – أن زبيدة أقرت بنفسـها إن مات زوجها فهى فى عصمته تأخذ من ماله ألفى ريال .

٨ – إن مات المذكور وخلف أولاداً من زوجته المذكورة وهم قصر، يقام عليهم رجلان ناظران ووصيان، واحد فرنساوى والثانى ابن عرب يتصرفان فى أموالهم بحسب المصلحة فى طريقة الفرنساوية وطريقة المسلمين .

٩ – إن ماتت الزوجة يكون أبوهم هو الوكيل الشرعى على أولادهم وعلى أموالهم.

١٠ – إن مـات عبد الله باشـا وزوجته وخلفـا أولادا تركوهم تحت حماية جمهور الفرنساوية .

والزوجة والزوج أقرا، واعترفا برضاهم هذه الشروط على يد وكيلهم الإقرار والاعتراف الشـرعى الصادرين منهما بالمجلس، وأنهما التزما بهذه الشـروط، وأقرت ثبوتا شرعيا بحكما بموجبه فى ١٧ من رمضان ١٢١٣ هجرية الموافق ٢ مارس ١٧٩٩ ميلادية.

(٦)

ولقيت زبيدة فى أول الأمر من مينو شغفا وهياما وطرقا فى الغزل، وشكوى فى الصبابة، وكان يجثو أمامها فى استعطاف ويتمتم فى أذنيها

بأحاديث الحب واللوعة، وذلك بعد أن انبهر بها، وما رآه من سحر وفتنة، وكان لسان حاله ينطق بما أحس به الشاعر الجميل، الشيخ الفتى الولهان محمد الشهاوى، وهو يصف «امرأته المستثناة» بقوله :

هى امرأة تشبه الشمس إلا أفولا
على شاطئ الألق المترقرق مفغمة بلهيب الوضاءة
مترعة بأريج الأنوثة
تسلم أعضاءها ليد السحر ترسم فى
جسمها الغض أحلى الأساطير
ماذا يقول لسان المزامير
عنها
سوى أن يقولا :
هى امرأة تشبه المستحيلا
هى امرأة يشرب النور من قدميها «اللتين تشعانه»
هاطلات السنا والندى
كى يبلل الصدى
والمغنى هنالك - محتدما بأوار التراتيل -
يرسل اللانهائى فى مقلتيها
بريد المواويل
وهو يناغم رقرقة الضوء
إذ يتدحرج فوق حبال المدى

ليصافح فى وجنتيها الصباح الجميلا
وسيدة النور تعلم أن القصائد
مفتاح الدخول إلى باحة المطلق المتهلل
هى امرأة لم تراود
سوى الحلم عن نفسه
وفتاها
توزعه الحلم وحده والشذا
والهجوى
والبنحولا

...

هى امرأة قد تفرغت المعجزات لتشكيلها
والمقاديـر
دهرا طويلا
هى امرأة وجميع النساء سواها ادعاء
لها البحر من قبل بلقيس
عرش
وكل المياه إماء
يخاصرها الموج فى نهم
ممعنا فى الصبابة جيلا، فجيلا

...

هـــــــــى امـــــــــــــرأة
مـــــــــلء أعـــطـــافـــهـــا
عـــــــــــبـــــــــــق
يـــســـتـــدل عـلـيـهـا بـــه
مـــن يـــــود الـــــدلـــيـــــلا
هـــي.. امـــرأة تـشـبـه المستحيلا.!

(٧)

وروزيتا، الوردة الصغيرة، أو رشيد، كانت المفتاح السحرى، الذى فتح رحاب التاريخ المصرى القديم للإنسانية .!

كيف؟!

لقد تمكن الفرنسى جاك فرانسوا شامبليون من فك الرموز الهيروغليفية ومعرفة قواعدها ومعانيها وأسرارها المحفورة على «حجر رشيد» الذى عثر عليه أحد ضباط الحملة الفرنسية ويسمى «بوشار» والذى كان يقوم ببعض الترميمات لقلعة قايتباى برشيد.

والحجر الإنسانى المدهش، الذى تم العثور عليه عام ١٧٩٩، هو عبارة عن حجر من البازلت الأسود، تحمل نسخة من مرسوم أصدره بطليموس الخامس عام ١٩٦ قبل الميلاد مدون بخطوط ثلاثة هى «الهيروغليفية و هى اللغة المصرية القديمة، والديموطيقية وهى اللغة المصرية الشعبية، واليونانية.

وقد حاول الفرنسيون نقل الحجر معهم عند جلائهم عن مصر، إلا إن الإنجليز منعوهم، وقد آل الحجر – طبقا لشروط معاهدة ١٨٠١ بين الفرنسيين والإنجليز – إلى الإنجليز، وهو الآن من أهم الآثار المعروضة بالمتحف البريطانى بلندن. !

(٨)

وما كادت سُحب الغزو الفرنسى لمصر، تتبدد، وتزول، حتى وصلت الحملة الإنجليزية إلى الأسكندرية فى ١٦ مارس ١٨٠٧، واتجهت أنظار قائد الحملة فريزر إلى رشيد فى ٢٠ مارس، لتأمين التموين القادم منها، وفى ٢٩ مارس تقدمت قوة إنجليزية قوامها ١٤٠٠ جندى بقيادة الجنرال ودكوب للاستيلاء على رشيد، حيث وصلت فى اليوم التالى إلى مرتفعات أبو مندور الواقعة جنوب رشيد بنحو ٢ كم .. إلا إن الحملة منيت بهزيمة نكراء . !

وكان رصيد الحملة الإنجليزية من القتلى ١٨٥ والجرحى ٣٨٢، وقيل ٥٠٠ بين قتيل وجريح، فضلا عن ٤٠ جنديا إنجليزيا تم أسرهم، وقد وصلت الدفعة الأولى من رءوس القتلى الإنجليز إلى القاهرة فى ١٥ ابريل ١٨٠٧، وكان عددها ٩٠ عرضت فى ميدان الأزبكية، وقد قاد الدفاع عن مدينة رشيد حاكمها على بك السلانكى، والشيخ حسن كريت، وكان النصر بفضل حسن وترتيب قوات الدفاع عن المدينة من أبنائها، وقد اشترك الجميع، رجالا ونساء وغلمانا.

والثابت تاريخيا، أن هزيمة الإنجليز فى رشيد، أجّل الاحتلال

الإنجليزى لمصر نحو ٧٥ عاما، إلى أن عادوا مرة أخرى إلى مصر عام ١٨٨٢.

ويذكر الجبرتى فى يومياته : «وردت معلومات من ثغر رشيد تذكر بأن طائفة من الإنجليز وصلت صبح يوم الثلاثاء، ودخلوا البلد، وكان أهل البلد ومن معهم من عساكر متهيئين ومستعدين بالأزقة والعطف، وكان كاشفها فى انتظارهم، وطلع بمن معه إلى البر فصادف تلك الشرذمة، فقتل بعضهم، وأسر الباقى» .

(٩)

ورشيد، كما يصفها الفرنساوى «جولوا» أن شوارعها ضيقة، متعرجة، وكل البيوت مبنية من طوب ضاربة الحمرة، غامق اللون .. وتسمى هذه «الطوبة» تسمى بالرشيدية السوداء التى يقال: إن العلماء عجزوا عن الوصول لمعرفة الطريقة التى صنعت بها .

ويسجل جولوا فى «وصف مصر» دهشته من أن «المدارس فى رشيد كثيرة العدد، وهو ما يتناقض كثيرا مع الجهالة التى كان من المعتاد افتراضها فى سكان مصر» ! والواقع .. أنه لم يجتمع فى مدينة مصرية من البيوت الأثرية مثلما اجتمعت فى رشيد بعد القاهرة، ونظرا لأنها كانت أغنى مدينة فى العصر العثمانى، فقد عكست هذه البيوت ما تميز به أهل رشيد آنذاك، من التقدم فى فن النجارة والعمارة والبناء، فضلا عن أن صناعة خرط الخشب تعد من أقدم وأروع هذه الصناعات، إذ إن الصورة الزاهية والباقية حتى الآن، دليل عنوان هذه الحضارة .

وتضم رشيد ٢٢ بيتا أثريا، منها منزل الأمصيلى، وزبيدة البواب، فضلا عن ١٢ مسجدا ترجع إلى أصول تاريخية إسلامية مختلفة، وأربعة آثار أخرى هى طاحونة أبو جاهين، وحمام عزوز، وبوابة أبو الريس، وقلعة قايتباى .

وتعكس هذه الآثار الطابع الإسلامى، والمتأمل لها يقف كثيرا أمام المشربيات وصالات الاستقبال والنقوش الخزفية وأشغال الصدف، فضلا عن السراديب، وهى غاية فى التعقيد والسرية، وكانت هذه البيوت مزودة بصهاريج للمياه العذبة، ومبنية على أحدث طرق الفن المعمارى .

ويصحبنا عالم الحملة الفرنسية «جولوا» فى منزل الأمصيلى كنموذج للمنازل التى مازالت باقية، ومعظمها تحت الترميم الآن .. ويقول جولوا «يبدو فى الطابق الأرضى باب على مدخل كبير، ومن ثم بابان آخران أقل حجما، وأربعة أعمدة ذات ارتفاعات ومقاسات غير متساوية، مقامة على قواعد تشكل نوعا من الزينة، ويبنى مدخل الباب الرئيسى وواجهة المنزل من طوب شديد الانتظام، وثمة قطع من الخشب تختلط بهذا البناء، وتظهر أحيانا بالعرض، وأخرى لا تظهر، وهى مثل الإسفنج تمتص الهزات الأرضية» .

يضيف: «وينقسم بقية المنزل إلى ثلاثة طوابق تبين معالمها عن طريق كمرات خشبية تظهر أطرافها من الخارج لتشكل نوعا من الزينة، وينفذ الضوء إلى الأدوار العليا عن طريق نوافذ كبيرة تغلفها «تقفيصات» من الخشب، أى مشربيات» .

«وفى الواجهة فتحات تسمح بالتهوية، وثمة فتحات فى الجوانب لكى تجعل من الميسور الرؤية عن بعد فى الشارع حتى ترضى فضول السيدات اللاتى يستطعن الرؤية - بهذه الطريقة - أن يرينَ دون أن يراهم أحد» .!

«وثمة طابق رابع يشكل نوعا من الأكشاك، لها شرفة تستطيع النسوة أن يروحن عن أنفسهن دون أن يراهن أحد، ومع ذلك فمن الممكن رؤيتهن عن طريق المؤذنين من أعلى مآذن المساجد، فاحتاط الرشايدة لهذا الأمر، فتم اختيار المؤذنين من العميان» .!

يضيف «وينقسم البيت إلى جناحين، جناح الرجال، وجناح الحريم، وفى جناح الرجال أو مالك البيت كانت الشبابيك مغلفة بمشربيات خشبية كبيرة المربعات، أما مربعات مشربيات النساء فكانت أقل حجما، ويتم الاتصال بين الجانبين عن طريق سلم صغير، ويتم إيصال الطعام للرجال عن طريق كوة دائرية» .

ولأن المغْنى، والطُرَب كان له باع كبير فى مصر طوال التاريخ، فقد تم تخصيص غرفة للغناء، فى منزل الأمصيلى وزبيدة البواب، والغرفة غاية فى الجمال، فالسقف عبارة عن لوحة فنية، مرسومة بدقة، وبالغرفة مكان للتخت، وأمامه ما يشبه المكتبة، إذا فتحت - أحد أبوابها وجدت سلما صغيرا يصل إلى الدور الأعلى وبه مشربيات لتتمكن النسوة من الاستماع والاستمتاع بالطرب والموسيقى .!

(١٠)

ومن الآثار الإسلامية الهامة، ذات البعد الروحى، مسجد أبو مندور، ويصف «جولوا» هذا المسجد الذى تم ترميمه الآن، وهو من معالم السياحة الدينية: «إلى الجنوب بنحو فرسخ – أى كيلو ونصف الكيلو – يقع سفح حصن أبو مندور، توجد به صومعة إسلامية، وهى ملحقة بمسجد أقيم تكريما لولى مسلم تقع مقبرته داخله، وأبو مندور هو اسم هذا الولى، ويعنى أبو الروعة والجمال، أما المكان نفسه فيتوقف عنده اليحارة والمسافرون ليقدموا نذورهم إلى شيخ الجامع حتى يحوزوا بركته ورضاء الولى، كما يحدث فى مزارات كثيرة لأولياء آخرين، حتى يبلغ الوهم بأن الولى من هؤلاء قادر على جلب الخصوبة للنسوة العقيمات اللاتى يجئن إليه» !

ونضيف إلى معلومات جولوا الفرنساوى أن العارف بالله أبو النضر، أو أبو مندور من مواطنى كربلاء، من سلالة على بن أبى طالب، والمسجد له ثلاثة أبواب، شمالى وشرقى وغربى، والباب الشمالى مزخرف وكتب فى أعلاه عبارات تدل على أنه جدد عام ١٣١٢ هجرية، ويرتفع السقف الخشبى للمسجد على أربعة أعمدة من الرخام الأبيض المزخرف، قاعدته منقوشة بنقوش إسلامية، وعلى شمال الداخل من الباب البحرى توجد حجرة بها قبر صاحب المسجد .

وتنحصر الميزات الفنية والزخرفية للمساجد فى رشيد على النحو التالى:

١ – تعـدد المداخـل التى هى عبارة عن باب يقع داخل مسـتطيل بارز يعلوه عقد ثلاثى، يتوسـط عنده الأوسـط دائـرة مزينة بالزخارف النباتية والهندسية .

٢ – تحتـوى هذه المسـاجد علـى أروقة وبائكات محمولـة على أعمدة رخامية، وأكتاف تحمل أسـقفا خشبية أو قبابا كما هو موجود فى مسجد المشيد بالنور .

٣ – اعتنـاء الفنان بالأضرحـة والمقاصير، فزخـرف واجهات بعضها بالطوب الرشيدى المبخور .

٤ – استخدام القيشانى فى زخرفة الجدران، وفى المآذن كما فى مسجد دومقسيس .

٥ – استخدام الزخارف المشعة فى المحاريب، وفى القباب .

(١١)

وأتجول فى شوارع رشيد
أتنفس رائحة التاريخ

الشوارع وسط المدينة، شأنها شأن مدن مصر مزدحمة نهارا، الناس على شـاطئ النيل يصنعون يخوت الأغنياء، ويتم نقلها إلى شرم الشيخ والغردقة ومارينا .

أمـا الملاحظة الواضحة، فهى المقاهى، بين المقهى والمقهى، مقهى، وهـو ما لاحظه «جولوا» من ٢٠٨ سـنوات، وعلى حد تعبيره «رشـيد

يدخن فيها الجميع، غنيهم وفقيرهم، لذلك تصبح النارجيلات ضرورة أولية، فهى تصنع بكميات ضخمة، وبأشكال مختلفة، فهى تصنع من الطين الخزفى، معجون بعناية فائقة».

يضيف: «والمقاهى هى عبارة عن صالة واسعة ترتفع جدرانها، ويوجد بها منصات أو مصاطب، وعلى المصاطب يأتى الناس ليشربوا القهوة ويدخنوا النارجيلة التى لا تفارقهم مطلقا، وينعسون أو يستمعون إلى إنشادات الشاعر المرتجل، أو إلى حكايات يروبها حاك لا يمل الحكاية، وفى مقهى كبير على النيل تأتى العوالم أو الراقصات العموميات والموسيقيون والمنشدون والشعراء».

لكن جولوا سجل ملاحظة هامة، وهى الأذان يطلق لصلاة العشاء، يتسابق أهل رشيد إلى المساجد، يصلون، ثم يولون وجوههم إلى منازلهم، لياموا !

أما الآن.. فالناس يصلون - أيضا - لكنهم يولون وجوههم نحو المقاهى، فيسهرون فيها حتى الفجر، لذلك فقد أصدر اللواء فتح الله الجندى رئيس المدينة قرارا بغلق المقاهى فى الواحدة صباحا، بل إنه توقف عن إصدار تراخيص جديدة للمقاهى والكافيتريات.

ويرصد محمد العزازى مسألة المقاهى بقوله: يوجد نحو ١٢٠ مقهى برشيد، عدا تلك التى أزالها رئيس المدينة والمقامة على كورنيش النيل تمهيدا لإصلاحه، وجعله كورنيشا بلا مقاهٍ أو كافيتريات.

– ويقول: مقاهى الآن.. غير مقاهى زمان.!

– كيف ؟

– مقاهى زمان كانت عبارة عن مؤسسات متنقلة لعدة أسباب منها:

١ – المجتمع الرشيدى، مجتمع محافظ، «بمعنى أنه ممنوع على الغريب أن يزور رشيديا فى منزله، بل وصلت المسألة إلى أن الأخ لا يدخل بيت أخيه فى عدم وجوده، لذلك كانت المقهى هى مكان الاستقبال.

٢ – كانت المقاهى متخصصة، منها للبنائين والصيادين والنجارين، ومختلف التخصصات المهنية، ويتم فيها الاتفاق على المقاولات، وبها المحاسبون الذين يديرون حسابات المهن المختلفة.

٣ – والذى أدى إلى تزايد عدد المقاهى زمان – على حد تعبير سمير الديبانى تزايد النشاط الاقتصادى الناتج عن الصيد قبل إنشاء السد العالى، وقبل تأميم مضارب الأرز، والقادمين من قرى رشيد لتسويق بضائعهم الريفية.

ويشير أحمد الجداوى مدير التأمينات إلى تزايد عدد المقاهى – الآن – يرجع إلى البطالة، وسهر الشباب عليها نتيجة الإحباط وعدم وجود فرص عمل.

ورصد الجداوى عدد الحاصلين على شهادات عليا خلال السنوات الخمس الماضية بنحو عشرة آلاف، بعضهم هاجر إلى مناطق السياحة الجديدة فى شرم الشيخ والغردقة.

وقـال: إن هناك أنشـطة بيئيـة اندثرت، مثـل ورش البلاط بعد ظهور السـيراميك، والسـجاد اليدوى والكليم والأقفـاص من الجريد بعد ظهور أقفاص البلاستيك والحبال واللوف.

وأشـار إلى أن الصيادين اتجهـوا إلى أرتريا وليبيا، وكان هناك وعد بإنشـاء ميناء صيد عام ١٩٨٥، مع تطهير البوغاز، فلا الميناء أنشـئ، ولا البوغاز تطهر !

وقال مدير التأمينات إن الانتعاش الاقتصادى الآن يتمثل فى صناعة السـفن واليخوت، حيث يوجد ٢٤ ورشـة، وتعد رشيد أهم المواقع فى هذه الصناعة.

وتوقع إحياء النقل النهرى، الذى سيخفف العبء على النقل البرى، حيث ستنشـأ مدارس لصناعة السفن، كما كان الحال أيام محمد على، وسوف يوفر ذلك مليون فرصة عمل، بشرط إنشاء الميناء النهرى. !

وفسـر أحمد الجـداوى تزايد عـدد المقاهـى والحلاقـين ومراكز الاتصالات، بأنها أنشطة غير محتاجة إلى رأس مال. !

(١٢)

فى زيارة سـابقة لرشـيد، كان رئيسها السـابق حلمى زايد يحلم بمشـروع قومى يعيـد آثار رشـيد بالكامل - كما يحلم بإنشـاء فنادق مسـتخدما فى ذلك البيـوت الملوكية مثل عرب كندى وحسـين غزال وزبيدة البواب، لتنشـيط حركة السـياحة، مع تحويل رشيد إلى مركز ثقافى يتسق مع تاريخها الطويل.

إلا إن محمود درويش مدير آثار رشيد السابق، يرى ربط الآثار بالفنون التشكيلية، ويوافق على فتح البيوت كقاعات عرض، مع إنشاء معهد للحرف الأثرية تتخصص فى الأخشاب وعمليات الخرط التى اشتهرت بها رشيد.

لكنه لا يوافق على فتح البيوت الأثرية كفنادق حرصا على سلامة الأثر، الذى لا يتحمل الكهرباء والمياه والصرف الصحى.

(١٣)

وأحمل تساؤلاتى وملاحظاتى إلى رئيس المدينة الحالى اللواء فتح الله الجندى الذى يتحمل المسئولية منذ ثمانية شهور فقط، الرجل «شاب» و«متحمس» ويضع أمامه أجندة عمل يأمل فى تنفيذها.. !

يقول:

□ تأخرت رشيد عن مثيلاتها فى المقومات، مثل رأس البر على سبيل المثال، والمشاكل كانت تتمركز فى عدم وجود مشروعات البنية التحتية مثل الصرف الصحى، وبوغاز رشيد، والمياه الجوفية وعدم الاهتمام بآثار رشيد، وعدم إدراجها كمدينة سياحية وعدم وجود فنادق، ووجود نحر على شاطئ البحر عند المصب.

وبدأت المواجهة

□ فقد بدأت الدولة فى الاتجاه لإقامة البنية التحتية، وذلك بإقامة تسعة رءوس حماية لشاطئ رشيد بتكلفة ٩٤ مليون جنيه، ومن شأن

هذه الرءوس المحافظة على الشاطئ من التآكل، ويمكن عمل استثمار سياحى، ومصيف، وقرى سياحية على مساحة ٢٠٠٠ فدان، وذلك من شأنه تسيير عجلة التعمير على الساحل.

□ أما بوغاز رشيد، وهو مصدر اقتصادى فى تجارة صيد الأسماك، وصناعة اليخوت والمراكب السياحية، ومراكب الصيد، مع إمكانية إقامة منتجع سياحى بالمنطقة، وذلك مرهون بتطهير البوغاز، حيث يتم الآن بعد الاتفاق مع وزارة الرى التى تتحمل ٤ ملايين جنيه والثروة السمكية التى تتحمل أيضا أربعة ملايين جنيه.

□ لم ترق الصناعة لتحقيق الأمل فى مشروعات تفتح أبواب الأمل للشباب، مع عدم وجود مستثمرين، لعدم وجود صرف صحى وبعد المسافة والخوف على رأس المال، والرغبة فى المكسب السريع !

□ بعد ١٢ سنة من بداية العمل فى مشروع الصرف الصحى، تمكنا من إتمام ٨٠ ٪ منه، ومع بداية السنة الجديدة سيتم استلام محطة مقامة على ٩٠ فدانا، و ٥ محطات ربط، وبانتهاء المشروع.. المجال مفتوح للتصنيع.

□ منذ عام ١٩٨٤، لم تمتد يد لتجميل كورنيش النيل برشيد، أو حتى رفع التعديات المتمثلة فى الكافيتريات والمقاهى، وفى تقديرى.. جميع التعديات تمثل بقعة سوداء على شاطئ نهر النيل. ! لذلك قمنا بإزالة التعديات، وسيصل الكورنيش حتى منطقة أبو مندور.

□ تشجيع القطاع الخاص على إقامة فنادق، لتتحول سياحة اليوم الواحد إلى إقامة.

□ نشجع الآن المشروعات الصغيرة، بتسهيل التراخيص، وتسهيل الحصول على قروض ميسرة.

□ أما أقفاص الأسماك بالنيل، وهى ظاهرة تنامت فى غيبة المتابعة، وقد أقيمت بحجة تشغيل الأيدى العاملة.. ولكن للأسف لم تستخدم بطريقة صحيحة أو صحية، لجشع البعض فى تحقيق مكاسب سريعة دون تكاليف، حيث يتم تغذية الأسماك على الفضلات، وكان لابد من التصدى لهذه الظاهرة، وقد أمر محافظ البحيرة برفع هذه الأقفاص نهائيا، وتم إعطاء مهلة حتى شهر أكتوبر القادم، وإلا ستتدخل للإزالة.

□ نواصل ما بدأه الزميل حلمى زايد من خمسة عشر عاما، بزرع شجرة أمام كل بيت، لكن غيرنا استراتيجية الزميل حلمى، هو كان يمنح الشجر مجانا، نحن نبيع شجرة لكل مواطن لكى يحافظ عليها، لكن مجلس المدينة هو الذى يرعاها.. ودعنى أطرح هذا الشعار: من يزرعْ .. يرعَ !

وأعرب اللواء فتح الله الخطيب.. بعد أن شكا لى بمرارة عن تغير سلوك المواطن الرشيدى.. أعرب عن تغيير فى عادات الرشيدى، ليعود محبا للعمل، باذلا للجهد، وأن ينام مبكرا، ليستيقظ مبكرا.!

..

وكانت رحلة إلى روزيتا، التى أقول لها بحب كبير : نهارك سعيد .